سوريا
المعرفة
العدد رقم 502
1 يوليو 2005

الدراسات والبحوث

القيم الجمالية في آراء الجاحظ البلاغية (البيان والتبيين) أنموذجاً

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عصام شرتح(*)

ضرب المثل بأدب الجاحظ وبيانه وسعة عباراته حتى كان يقال من دليل إعجاز القرآن إيمان الجاحظ به. ومن المفيد لطلاب البلاغة وعلم الجمال أن يمعنوا النظر بكلام الجاحظ ليتبيّنوا بأنفسهم طريقته، ويتعرّفوا ميزانه الدقيق في فقه اللّغة من حيث النظر في مواقع الألفاظ، وأين استعملتها العرب، وتحري الألفاظ البعيدة عن طرفي الغرابة والابتذال واجتناب كل صيغة تُخرج الذهن عن أصل المعنى وتُشَوّش عليه.

(*) عصام شرتح: باحث سوري.

- العمل الفني: الفنان علي مقوص.

والجاحظ من جهابذة البلاغة وأساطين البيان، وكتابه «البيان والتبيين» خير دليل على ذلك، وهذا ما أكّده أبو هلال العسكري بقوله: ... **كتاب البيان والتبيين للجاحظ هو - لَعَمْري - كثير الفوائد، جمّ المنافع، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة، والفقر اللطيفة، والخطب الرائعة، والأخبار البارعة، وما حَوَاه من أسماء الخطباء والبلغاء، وما نبه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة وغير ذلك من فنونه المختارة، ونعوته المستحسنة. إلاّ أنّ الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه، ومنتثرة في أثنائه، فهي ضالّة بين الأمثلة، لا توجد إلاّ بالتأمّل الطويل، والتصفّح الكثير**»[1].

كما ترك هذا الكتاب أثراً واضحاً على جهابذة علماء البلاغة والبيان، فها هو ابن رشيق القيرواني في كتابه «العمدة» يتحدّث عن أهميّة الكتاب وفضله، قائلاً: «**لقد استفرغ أبو عثمان الجاحظ - وهو علاّمة وقته - الجهد، وصنع كتاباً لا يُبْلَغ جودة وفضلاً ثمّ ما ادّعى إحاطته بهذا الفن، لكثرته وأنّ كلام الناس لا يحيط به إلاّ الله عزّ وجلّ**»[2].

أوّلاً - أقسام كتاب «البيان والتبيين»:

تشيع في هذا الكتاب، كما في سائر كتب الجاحظ فوضى في التأليف، لا نستطيع معها حصر موضوعاته في أقسام متسلسلة؛ فسنكتفي بإيراد خلاصة ما في أبواب الكتاب من موضوعات. فالجاحظ يمزج في كتابه علوم البلاغة بالأدب والتاريخ.

أمّا ما يرجع إلى البلاغة فكلام على ماهية البلاغة، وعلى نعمة الفصاحة، ثمّ على عيوب اللّسان والعيّ، كاللحن واللكنة، والفأفأة والتمتمة، والتشديق والتقعير، والتعقيب. ويُلْحق بالبلاغة أيضًا الكلام على الخطابة وعيوب الخطيب من نحنحة وسعلة، والأسنان وعلاقتها بالخطابة. ويُلْحق كذلك بالبلاغة ما يرجع إلى موسيقى الكلام من حروف وألفاظ متنافرة، ومن سجع وما إلى ذلك.

أمّا ما يرجع إلى الأدب فيورد فيه الكثير من كلام العرب في العهد الراشدي والأموي والعهد العباسي من شذرات مأثورة منتقاة ومن خطب بليغة

أما ما يرجع إلى التاريخ، ففيه الكثير من أخبار الخطباء والعلماء والأمراء والكهّان والنسّاك وغيرهم.

ثانيًا - أهمية الكتاب:

- إنّ لفظة البيان التي اختارها الجاحظ عنوانًا لكتابه تعني التعبير الواضح البليغ في حدّ ذاته، وهي مرادفة من هذه الوجهة للفظة «التبيين» التي تعني الشيء نفسه بالنسبة للشخص المتكلّم[3].

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وكتابه «البيان والتبيين» موسوعة كبرى، تناول فيه الجاحظ أكثر فنون الأدب وأركانها، وأشار إلى ما جَمُلَ منها وما قَبُح. بأسلوبه المعروف الذي يغلب فيه الاستطراد والانتقال من موضوع إلى موضوع، كما يغلب عليه حشد كثير من نصوص الأدب وفنون الكلام من الرسائل والخطب والأشعار والأخبار»[٤]..

ويُعْتَبَر كتاب: «البيان والتبيين» موسوعة في الأدب وفنونه وأعلامه: بكلّ ما تحويه هذه الكلمة من دلالات، وأمّا المنهج العلمي الذي يحرص على حصر الموضوع، وتنظيم البحث، وتقسيمه، واستيفاء الكلام في أجزائه جزءًا جزءًا، فقد بَعُد عنه الجاحظ في هذا الكتاب، وتلك سمة الجاحظ في أكثر تآليفه، ذلك بأنّه رجل واسع المعرفة، ضليع في الثقافة، عظيم الخبرة، رحب العقل والتفكير، ومن هنا «تزاحمت عليه الأفكار، وتسابقت إلى قلمه فَحَشَد كلّ ما استطاع أن يُسَجِّل ممّا جالَ بفكره في كتابه، وكان هذا هو السرّ الذي من ورائه فَقَدَ الكتابُ التنظيم العلميّ حتى ليصعب الاهتداء في جنبات مؤلَّفاته إلى الفكرة والرأي لمن يبحث عن الفكرة والرأي»[٥].

ونلاحظ أنّ للكتاب قيمتين الأولى تاريخية والثانية أدبيّة:

- القيمة التاريخيّة:

تظهر في هذا الكتاب نزعة الجاحظ

العربيّة، فهو يردّ على الشعوبيّة، ويُكثر من إيراد ما للعرب من مظاهر البلاغة، فهو في موقف معاكس لزعماء الثورة التجديديّة؛ وهو مع ذلك يضيف في كتابه إلى الثقافة العربيّة الواسعة عناصر مختلفة ممّا تُقدّمه الثقافات الأخرى اليونانيّة والفارسيّة والهنديّة وغيرها، حتى ليمكننا القول: إنّ كتابه مزيجٌ من ثقافات مختلفة تغلب عليه الثقافات العربيّة؛ فهو يعرض أدب العرب والفرس، وحكم الهنود، ونصائح اليهودية والمسيحيّة؛ وهو يتكلّم على مذهب التناسخ، وينقل أقوالاً لداوود والمسيح، ويذكر عادة الرهبان في اتخاذ العكازة والعصا، كما يذكر أنّ للهنود كُتبًا في الحكمة والأسرار، وإنّ لليونان منطقًا يُعرَف به الخطأ من الصواب إلى غير ذلك من المعلومات الواسعة.

- القيمة الأدبيّة:

جمع الجاحظ في هذا الكتاب طريقتين الأُولى طريقة عبد الحميد الكاتب القائمة على الإطناب والازدواج والثانية طريقة سهل بن هارون، القائمة على التحليل والتعليل والجدل والحوار. ولم يكتف الجاحظ بالجمع بين الطريقتين فقط بل زاد على الطريقة الأولى حسن التقسيم وجمال الإيقاع والتقصي وكثرة الاستطراد... وزاد على الثانية جانب الفكاهة الساخرة وتوليد المعاني حتى كان في إيقاعه أوقع. وفي ازدواجه أمتع. وفي تحليله أدق وأبرع.. كما كان لبقًا في حواره، قويّ اللّدد في جداله، مريرًا في تهكمه، يسيل رقّة في طرائفه ونوادره... وبكل هذا طُبِعَت هذه الطريقة التي عرف بها الجاحظ وذاعت وشاعت على غيرها من الطرائق. ومن هنا يعد الجاحظ رائد مدرسة «التحليل والتفريع والاستقصاء» وهذا ما أكده الباحث محمد نبيه حجاب في قوله: «لقد حملت مدرسة الجاحظ القائمة على التحليل والتفريع والاستقصاء لواء البيان عبر القرون، منذ أواخر القرن الهجري الثاني... ولم تستطع المدارس التالية - بتيّاراتها الجديدة - أن تطغى عليها أو تطوي صفحتها، بل كانت تسايرها زمنًا، وتكاد تغمرها، ثم تنحسر عنها.. حتى في عصرنا الحاضر - الذي ملّ السجع وألحان البديع، وساد في الأسلوب المرسل - لم تتوقف لها موجة، ولم ينقطع لها تيّار، تلمحها في التوازن والازدواج عند الرافعي والزيّات. والترديد والتكرار عند طه حسين، والتحليل والتعليل، والسخرية والتهكم عند الشيخ عبد العزيز البشري... وغيرهم»[٦].

كما ذكر ابن خلدون أهميّة هذا الكتاب حين قال: «**سَمِعْنَا من شيوخنا في مجالس التعليم أنّ أصول فنّ الأدب وأركانه أربعة دواوين، وهي: أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرّد وكتاب البيان**

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي، وما سوى هذه الأربعة فتبعٌ لها وفروع عنها»[٧].

أمَّا العبارة - في هذا الكتاب - فكانت متينة السبك، جزلة الألفاظ، محكمة الربط، وثيقة الحلقات، ورُبَّما كان من العسير - في بعض عبارات الجاحظ - أن تنزع لفظًا من موضعه، أو تستبدل به غيره من ذوي قرابته، أو تقدّمه على ما أخَّره؛ لأنَّه كان يرى لكل معنىً لفظًا خاصًا به لا ثاني له، ولا مناص منه لمن طلب البلاغة.. لقد أفصح عن ذلك بقوله:

«واللفظُ مَتى شاكَلَ - أبقاكَ الله - مَعْنَاه، وأعْرَب عن فحواهُ، وكان لتلك الحالُ وفقًا ولذلك القَدْرُ لفقًا، وخرج عن سماجة الاستكراه، وسَلُمَ من فساد التكليف. كان مَيمًا بحسن الموقع وبانتفاع المستمع.. ولا تزال القلوب به مَعْمورة، والصدور به مأهولة.

ومتى كان اللفظ أيضًا كريمًا في نفسه، مُتَخَيَّرًا في جنسه، وكان سليمًا من الفضول بريئًا من التعقيد، حُبِّب إلى النفوس، واتّصل بالأذهان، والتحمَ بالعقول، وهَشَّت إليه الأسماع، وارتاحت إليه القلوب، وخفَّ على ألسن الرُّواة، وشاع في الآفاق ذِكْره؛ وعَظُمَ في الناس خَطَرُهُ»[٨].

ويبدو أنَّه كان يرى البلاغة في حسن الألفاظ، ومن ثمَّ كان يدعو إلى الدقَّة في اختيارها والتروِّي في انتقائها، ويُذَكِّرنا بموعظة أحد الأدباء: «**إنَّ المعنى إذا اكْتَسَى لَفْظاً حَسناً، وأعَارَهُ البليغ مَخْرَجاً سَهْلاً؛ ومَنَحَهُ المتكلم ولاَ مُتَعَشِّقاً، صار في قلبك أحْلَى؛ ولصدرك أمْلا؛ والمعاني إذا كُسِيَت الألفاظ الكريمة؛ وأُلْبِسَت الأوصاف الرفيعة، تَحَوَّلت في العيون عن مقادير صورها؛ وأربت عن حقائق أقدارها بقدر ما زُيِّنت، وحسب ما زُخْرِفت، فَقَد صارت الألفاظ في معاني المعارض، وصارت المعاني في مَعْنَى الجواري**»[٩].

وإذا كان الجاحظ من أئمة المعتزلة الذين تَسَلَّحوا بالفلسفة اليونانية، واصْطَنَعُوا أساليبها في الردّ على خصومهم فمن الطبيعي أن يعتمد في أسلوبه على التحليل والتعليل وتوليد المعاني وغير ذلك ممَّا يُمَكِّنه من المحاورة وقوّة اللدد دفاعًا وهجومًا.

وبهذه الخصائص انفردت مدرسة الجاحظ الأدبيَّة، وتميَّزت عن سائر الأساليب وإذا كان سهل بن هارون هو واضع حجرها الأساسي فإنَّ الجاحظ هو الذي رفع القواعد وأعلى البناء.

ثالثًا - أسلوب الجاحظ وفنِّيته:

اختلف الباحثون في أسلوب الجاحظ أمعنويٌّ هو أم لفظيّ؟ فمن نظر إلى كتبه العلميَّة عَدَّه من أنصار «المعنى»، ومن نظر في رسائله الأدبيَّة عدّه من أنصار اللفظ،

ARCHIVE http://archivebeta.Sakhrit.com

والواقع أنَّ الجاحظ - وهو العالم الأديب - كان يصطنع في كتابته الأسلوبَيْن: الأدبيّ والعلميّ، غير أنَّه في كتابته العلميَّة كان يَمزج أسلوبه برحيق الأدب؛ ليزيل جفافه، ويُخَفِّف من حِدَّته»(١٠).

ويُعَدّ الجاحظ من أصحاب الأدب المجرَّد، يريد أن يسمي الأشياء بأسمائها من غير لجوء إلى الكناية والتلميح، فهو يريد الحريَّة في الأدب كما أرادها في كل شيء ويريد الحريَّة في اللغة بإثبات كلام الغير على علاَّته كما قيل وكما ورد، وإن وقع فيه لحنٌ وألفاظ غير معربة، وما إلى ذلك. يقول الجاحظ:

متى سمعتَ - حَفِظَكَ اللهُ - بنادرة من كلام الأعراب، فإيَّاك وأن تحكيها إلاَّ مع إعرابها، ومخارج ألفاظها، فإنَّكَ إن غيَّرتها بأن تلحن في إعرابها وأخرجتها كلام المولَّدين والبلديِّين، خرجتَ من تلك الحكاية، وعليكَ فضل كبير؛ وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام، ومُلحة من مُلَح الحشوة والطَّغام فإيَّاك وأن تستعمل فيها الإعراب، أو أن تتخيَّر لها لفظاً حسناً... فإن ذلك يُفْسِد الإمتاع بها، ويُخْرِجها من صورتها ومن الذي أُريدت له...»(١١).

وإذا كنَّا في معرض الحديث عن القيم الجماليَّة لبلاغة الجاحظ لا عن علمه، فلن يعنينا سوى طريقته الأدبيَّة، التي تأثَّرت بمدرسة أستاذه عبد الحميد الكاتب، فتقمصت أسلوبه القائم على «الترسل الصناعي»، الذي يجمع بين السجع أو الازدواج والإطناب؛ غير أنَّ الجاحظ - لغزارة علمه، واتصاله الوثيق لفلسفة اليونانيَّة - قد طَوَّر أُسلوبها، ونَقَلَهُ من حال إلى حال، وإن ظلَّت جذوره تمتح من مدرسة عبد الحميد الكاتب؛ فإلى أيّ حدّ كان هذا التطوير؟ وما مظاهره؟.

جَمَعَ الجاحظ في أسلوبه - بين ما ورثه عن أسلافه من خصائصَ كالسجع والازدواج والإطناب، وما بين ما أملت عليه مواهبه من ميله إلى التحليل والتعليل والاستطراد والاستقصاء، والمراوحة بين الجدِّ والهزل والواقعيَّة الطبيعيَّة التي لا تحفل بلوم اللائمين.

والملاحظ أنَّ الجاحظ في كتابه هذا كان يرد الموضوع إلى مختلف عناصره، ليلمّ به من جميع أطرافه.. فقد أملت عليه الفلسفة اليونانيَّة التي تمرَّس بها أن يُحَلِّل ويُعَلِّل، ويفترض ويستدلّ فلا تَرَاهُ يُرسل قَوْلاً على عواهنه، ولا يذكر قضيَّة من غير دليل وهذا ما تبدَّى لنا - من خلال المفاضلة التي أجراها بين أبي بكرٍ وعلي، إذْ يقول:

«فإن احْتَجَّ مُحْتَجٌّ لعليّ بالمبيت على الفراش، فبين الغار والفراش فرق واضح، لأنَّ الغار وصحبة أبي بكرٍ للنبيّ - ﷺ -

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قد نَطَقَ به القرآن الكريم، فصار كالصَّلاة والزكاة وغيرهما كَمَّا نطق به الكتاب، وأمْرُ عليٍّ ونَوْمُهُ في الفراش، وإن كان ثابتًا صحيحًا إلاَّ أنَّه لم يُذكر في القرآن، وإنَّما جاء مجيء، الرِّوايات والسِّير، وهذا لا يُوازن هذا ولا يُكامِلهُ»[١٢].

هذا ولم يكن الجاحظ يُحَلِّل الموضوع فحسب، بل إنَّه إذا لَزِمَ الأمر يُحَلِّل النفوس أيضًا، ويسبر أغوارها، ليستشف طباعها، فإذا صَوَّر ذلك بقلمه رأيته عالمًا نفسانيًا، في زي أديب مبدع، والأمثلة على ذلك كثيرة، فانظر إليه في تحليل نفس الحاسد وموقفه من المحسود كيف يصوِّره ناقدًا وساخرًا، إذ يقول:

«الحَسَدُ – أبقاكَ الله – يُنْهِك الجسد، ويُفْسِد الأود، علاجُهُ عسِرٌ وصاحبه ضجِرٌ... فمنهُ تتولّد العداوة، وهو سببُ كلّ قطيعة، ومنتجُ كلِّ وحشة، ومفرِّق كلّ جماعة، وقاطع كلّ رحم بين الأقرباء، ومُحْدِث التفرّق بين القرناء، يكمن في الصدور كالنار في الحجر. فمن شأن الحاسد إن كان المحسود غنيًا، توبيخه على المال، وقوله إنّه جَمَعَهُ حرامًا ومنعه أثامًا. وألّب عليه محاويج أقاربه، وتركهم له خصماء وأعانهم في الباطن، وحمل المحسود على قطيعتهم في الظاهر، وقال له: كفروا معروفك، وأظهروا في الناس ذمّك، فليس أمثالهم يُوْصَلون، فإنّهم لا يشكرون، وإن وجد له خصمًا أعانه عليه ظلمًا، فإن كان ممَّن يعاشره غَشَّهُ، أو تَفضَّل عليه بمعروف كَفَرَه، او دَعَاهُ إلى نُصْرَة خَذَلَهُ، او حَضَرَ مدحه ذَمَّه؛ وإن سُئِلَ عنه هَمَزَهُ، أو كانت عنده شهادة كَتَمَها، وإن كانت منه إليه زلَّة عظَّمَهَا»[١٣].

أمَّا الاستطراد الذي درج عليه الجاحظ، وبه تميَّزَت طريقته فهو النتيجة الحتميَّة لسعة ثقافته، وتنوُّع معارفه... والواقع أنَّ الاستطراد صفة بارزة من صفات الأدباء الذين تغلب عليهم سمة تراكم المعرفة وغزارة العلم؛ إذْ المعاني يدعو بعضها بعضًا، ممّا يُؤدي به إلى الاستطراد وراء الجزئيات والدخول في تفريعات عديدة، مما يلهيه عن موضوعه الأساسي، ومع هذا لم تسلم مدرسة الجاحظ من ألسنة النقاد باعتبارها تؤدّي إلى تشتت الذهن وإرباك القارئ، كما تدفَعُه إلى السآمة والملل.

وقد كان لفكاهة الجاحظ ودعابته أثر واضح في إثارة القارئ لينأى به عن الضجر والملل وهذا ما أشار إليه المسعودي بقوله: «... وكان إذا تَخَوَّف ملل القارئ وسآمة السامع، خَرَجَ من جدٍّ إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة»[١٤]، وهو بذلك يلتقي مع «برنارد شو» في فلسفته تلك فقد كان يقول: «إذًا لم أضحك لم يَسْتَطع الناس احتمالي».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كما أثر عن الجاحظ كثير من «النوادر» التي وشّح بها كُتُبَه أو التي جَعَلَهُ أثيرًا عند الوزراء والخلفاء، حدّث عن نفسه فقال: «وما أخجلني أحد مثل امرأتين، رأيت إحداهما بالعسكر؛ وكانت طويلة، وكُنْتَ على الطعام فأردتُ أن أمازحها، فقلتُ انْزلي كُلِي مَعَنَا، فَقَالَتْ: اصعد أنت حتّى تَرَى الدنيا...

وأمّا الأخرى فإنَّها أمَّتني وأنا على باب مَنْزلي، فَقَالَت: بي إليكَ حَاجَة، وأريد أن تمشي معي، فَمَشَيْتُ مَعَها حتّى إذا أتت بي إلى صائغ، فَقَالَت له: مثل هذا، وانصرفت. قال: فسألت الصائغ عن قولها فقال: أتتني بفصّ وأمرتْني أن أنقش عليه صورة شيطان، فَقُلْتُ لها: ما رأيتُهُ فأتت بك»(١٥).

على أنّ روح الدعابة كانت تَتَجَلّى أكثر وأكثر حينما يَعْمد إلى التهكم والسخرية فلو نَظَرْنَا إليه وهو يُداعب غريمه «أحمد ابن عبد الوهاب» في رسالته الهزليّة «التربيع والتدوير» لرأيته مُصَوِّرًا «كاريكاتوريًا» ساخرًا يُجَسِّم المَلامح، ويُشَوِّه الوجوه.

«كانَ أحمد بن عبد الوهاب يُخَاشنه غيرة، ويطاوله حَسَدًا، فأنشأ فيه هذه الرسالة التي مَسَخَتْهُ قَزَمًا، وشوّهَتْهُ جِسْمًا وعَقْلاً... اخبرنا أنّ أحمد بن عبد الوهاب كان مفرطَ القصر، ويدّعي أنّه مُفْرطُ الطول، وكان مُرَبَّعًا، وتحسبه لسعةِ جَفْرَتِهِ، واستفاضة خَاصَرَتِهُ مُدَوَّرًا، وكان جَعْد الأطراف قصيرَ الأصابع، وهو في ذلك يدّعي البساطة والرّشاقة... وكان طويل الظهر، قصير عظم الفخذ، وهو مع قصر عظم ساقه يدّعي أنّه طويل الباد، رفيع العماد، عالي القامة، رفيع الهامة، قد أُعْطى البسطة في الجسم؛ والسعة في العلم، وكان كبير السنّ، متقادم الميلاد، وهو يدّعي أنّه معتدل الشباب، حديث الميلاد. وكان ادعاؤه لأصناف العلم قدر جهله بها، وتكلُّفه الإنابة عنها على قدر غباوته فيها»(١٦).

وكأنَّما يريد الجاحظ بذلك أن يشوّه جسده، كاشفًا عيوبه الخلقية، وادّعاءه ما ليس فيه. وهو يعمد في سخريّته إلى المفارقات والمتناقضات مُسْتعينًا على ذلك بضروب من الجدل والاحتجاج والحوار، وضروب من السفسطة والمغالطة ومقابلة الحقائق بعضها ببعض. فبواسطة **المفارقات والمتناقضات** استطاع الجاحظ أن يُشَوِّه جسم ابن عبد الوهاب وعقله، ويُصَوِّره لنا تصويرًا «كاريكاتوريًا» مضحكًا، فيقول مثلاً: «من غريب ما أعطيتَ وبديع ما أتيتَ أنا لم نَرَ مقدودًا واسع الجُفْرَة غيرك، ولا رشيقًا مستفيض الخاصرة سواكَ! فأنتَ المديدُ، وأنْتَ البسيطُ، وأنتَ الطويل وأنتَ المتقارب، فيا شعرًا جَمَعَ الأعاريضَ، ويا شَخْصًا جَمَعَ الاستدارة والطول»(١٧).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وعلى هذا النحو يأخذ الجاحظ بالحوار والجدل فَيَتَّسع في فكرة الطول والقصر اتساعًا شديدًا فيقف تارة في جانب القصر فيحتجّ له، ويقف تارة في جانب الاعتدال، وقد يقف في جانب الطول، ويدلي في كل ذلك بالحجج والبراهين كأنّه يناقش مسألة علميَّة، و«كأنّي بالجاحظ - على حدّ قول شوقي ضيف - أحال أحمد بن عبد الوهاب إلى مشكلة من مشاكل الاعتزال أوقل إلى مشكلة من مشاكل الفلسفة... إذْ يتناوله مرَّة بالطول ومرَّة بالعرض، وهو أثناء تناوله يمدُّه تارة، ويُقَصِّره تاره أُخرى، وتارة أخرى يُظْهره في مناظر تستخرج منا الضحك على ما يصنع بصاحبه من تشويه»[١٨].

وهو يكثر في كل ذلك من السفسطات، فيأخذ بحجج وأقيسة غير صحيحة، وهو عالم بعدم صحتها، ليبرهن عن فنّ رفيع ومقدرة فلسفيّة عجيبة، وبيان شحذته الثقافة، ولباقة في الحديث نادرة لا تحلو من تكرار واستطراد.

رابعًا - خيال الجاحظ:

ليس الجاحظ رجل الخيال الفسيح الأرجاء، وليس هو رجل العاطفة التي تستبد بجميع كيانه، إنّما هو رجل الاعتزال، أي رجل العقل والجدل، يطلب الحقيقة بكلّ قواه، ويبحث طويلاً في سبيل الحصول عليها، ثمّ يسعى جهده للتعبير عنها تعبيرًا بيّنًا، يُظْهر جميعَ دقائقها قريبة إلى الإفهام.

ولأجل ذلك نرى الجاحظ يعدل عن أساليب المجاز ما استطاع؛ وإن عمد إلى شيء من التشبيه والاستعارة فما ذلك للزخرف وتطلّب الصنعة، ولكنّه لوضوح الإبانة بطريقة واقعيّة محسوسة. ومن ثمّ فاستعاراته وتشبيهاته بعيدة كل البعد عن التعقيد والاغراب، قريبة كلّ القرب من الإفهام. مثال ذلك قوله يصف حيَّة الرمال: «... غَمَسَت هذه الحيَّة ذنبها في الرمل. ثمّ انتصبت كأنّها رمحٌ مركوزٌ أو عودٌ ثابتٌ، فالتشبيه حسّيّ، سهل المأخذ لا يحتاج إلى تفكير ولا إلى تخيُّل عميق.

أمّا لغة الجاحظ، فهي اللّغة التي يقتضيها العقل ويطلبها الأداء والكشف والحقيقة، فالجاحظ يرمي إلى الإفهام، وإلى استعمال الألفاظ التي تُفْصح عن المعاني عن طريق الحقيقة، ومن محاسن كتابته رسالته في «وصف الكتاب» إلى من عاب كتبه خاصَّة، وانتقص الكتب بعامَّة... يقول: «...فَعِبْتَ الكتابَ، وهو نعم الذخر والعقدة، ونعم الجليس والعدّة، ونعمَ الأنيس ساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاء الغربة، ونعم القرين الدخيل، ونعم الوزير والنزيل. والكتاب وعاءٌ مُلِئَ علمًا، وظُرْفٌ حُشِيَ ظُرْفًا، وإناء شُحِنَ مزاحًا وجدًا، إن شئتَ كان أبين من سَحْبَان وائل، وإن شئتَ كان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أعيى من باقل، وإن شئتَ ضحكت من نوادره، وإن شئتَ عجبتَ من غرائب فرائده، وإن شئت ألهتْكَ طرائقه، وإن شئتَ أشجتْكَ مَواعظُهُ، ومن لك بَواعظ مُلْه، وبزاجر مُغْرٍ، وبناسك فَاتك، وبناطق أخرس، وببارد حار. ومن لك بشيء يجمع الأوَّل والآخر والناقص والوافر، والخفي والظاهر، والشاهد والغائب، والرفيع والوضيع، والغثُّ والثمين، والشكل وخلافه والضدّ وجنسه»[١٩].

كما يبيّن فضائل الكتاب بأسلوب واضح، من حيث اختيار الألفاظ بدقّة متناهية بعيدة عن الخشونة والغرابة، وكأنّها درر يُحْسِنُ تصيُّدها، فيختار اللفظة بجرسها ورنّتها فيميِّز الثقيلة والخفيفة، والمأنوسة والوحشيّة التي تؤدي معناه حقّ الأداء «فلا تعصيه كلمة مهما دقّ موضوعه، ولا يطوي لسانه على معنى في قلبه لا يتسنّى له إبرازه بالنطق أو تمثيله باللفظ»[٢٠].

وترى الجاحظ نحّاتًا وبنّاءً في آن واحد، انظر إلى قوله في صحبة الكتاب:

والكتاب هو الجليسُ الذي يطريكَ، والصديق الذي لا يقليك، والرفيق الذي لا يَمُلُّك، والمستميح الذي لا يُؤْذيك، والجارَ الذي لا يَستَبْطئكَ، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق، ولا يُعَاملك بالمكر، ولا يخدعك بالنِفَاق، والكتاب هو الذي إن نظرتَ فيه أطالَ إمْتَاعَك، وشحذ طبَاعَك، وبَسَطَ لِسَانَكَ، وجوَّد بَيَانَكَ، وفخَّم ألفاظك، وعمَّرَ صَدْرَكَ.. يطيعُكَ بالليلِ طاعته بالنهار، وفي السفر طاعته في الحَضر، وهو المعلِّم الذي إن افتقرت إليه لم يُحَقرك، وإن قطعت عنه المادّة لم يَقْطَع عنك الفائدة، وإن عُزِلْتَ لم يَدَعْ طاعتك، وإن هَبَّت عليك ريح أعدائك لم يَنْقلب عليك.. ومتى كُنْتَ مُتعلِّقًا به، ومتَّصلاً منه بأدنى حبل لم تضطرك معه وحشة الوحدة إلى قرين السوء»[٢١].

وهكذا شاعت العذوبة في كلامه إلاَّ أنَّ تلك السهولة وتلك الدِّقَّة لا تخلوان أحيانًا من غموض ينجم عن التباس الضمائر فلا يُعْرَف إلى من تَرْجع لتعاقبها؛ ويعمد الجاحظ أحيانًا إلى ألفاظ أعجمية وعاميَّة مراعاة لمقتضى الحال.

ومهما يكن من أمر فالجاحظ، مصوِّرٌ بارع، يُصَوِّر بجمله وألفاظه، فيذكر الدقائق والتفاصيل بأوضاعها لا بسلسلة تصويرات أو تشبيهات أو ما إلى ذلك، وهو في كلّ ذلك رجل الواقع الذي لا يحيد عنه في حال من الأحوال.

هذا هو أسلوب الجاحظ الذي انفرد به، وبه عُرِف، وتلك هي طريقته، التي بها صار شيخ الكتَّاب، لا عجب - بعد ذلك - إنْ كان ابن العميد يعجبه أن يُلَقَّب.. بالجاحظ الثاني، والجاحظ الأخير»[٢٢].

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

خامساً - القيم الجمالية:

كثيرة هي القيم الفنية التي نلمسها في آراء الجاحظ البيانية، سنختار منها القيم التي تركت بصمات واضحة على لغته الأدبيّة، وأدّت إلى اتساق اللفظ وتصوير المشاهد بما يتناسب مع جدله وهزليّاته، من ذلك.

١ - التناسق الفني:

عرفنا من خلال ما قدّمناه من أمثلة لبلاغة الجاحظ مدى قدرة الجاحظ على الانتقال من موضوع لآخر بفنّية عالية، من حيث التنوّع في طريقة العرض بما يتناسب مع السياق العام لاستطراده ودعابته، ونلاحظ في رسائله ذلك التوافق التام بين البدء والختام؛ وكذلك بين العرض والتعقيب في نهاية الرسالة، وكأنّ الجاحظ يُفكّر بالخاتمة المُثيرة ذات الجرس الإيقاعي المعتمد بصفة عامّة على جمال الازدواج وحسن الإيقاع، وهذا ما نلحظه في أثناء حديثه عن البيان.

«البيانُ اسمٌ جامعٌ لكلّ شيء كشف لك قناع المعنى، وهتَكَ الحجاب دون الضمير، حتى يُفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنًا ما كان ذلك البيان، ومن أيّ جنس كان الدليل؛ لأنّ مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع»[٢٣].

هنا نلاحظ تناسق الجرس الموسيقي مع توليد المعاني بأسلوب متسلسل محكم الربط وثيق الحلقات، يقوم على الجناس اللّفظي، ومراعاة النظير في التعبير. وهذا ما يبيّنه قوله بوضوح: «ما البيانُ؟ قال: أن يكون الاسم يحيط بمعناك، ويُجَلّي عن مغزاك، وتخرجه عن الشركة، ولا تستعين عليه بالفكرة. والذي لا بُدَّ له منه، أن يكون سليمًا من التكلُّف، بعيداً من الصنعة، بريئًا من التعقُّد، غنياً عن التأويل»[٢٤].

هنا نجد في هذه الفقرة تناسقًا في اللّفظ وتناسقًا في الفواصل الإيقاعية، يصحبهما تناسق في المعنى، وهذه الأمور كلّها تجعل البيان عند الجاحظ يتميَّز بميِّزات خاصّة، وهذه الميُزات منها ما يتعلّق بالمتكلّم، ومنها ما يتعلّق بالدليل. فالبيان... بالنسبة للمتكلم هو قبل كلّ شيء «تعبير». تعبير المتكلّم عمًّا يختلج في صدره. لأنَّ هذا البيان مركز القلب، و«الكلمة إذا خرجت من القلب وَقَعَت في القلب، وإذا خرجتْ من اللسانِ لم تجاوز الآذان»[٢٥].

فالبيان بالنسبة للجاحظ هو إجلاء المتكلم للحقيقة والصدق ولا شيء آخر سوى الحقيقة والصدق. وهنا جاءت الألفاظ متناغمة متناسقة تدلّ على تنظيم وتنسيق مستجاد فيما بينها. ممَّا يجعلنا نقول: إنها تتميَّز كالدّرر بجمال التقسيم ودقّة الترتيب وكمال التفريع.

٢ - الإبداع في عرض المشاهد:

يمتاز الجاحظ في آرائه البلاغيَّة بتكثيف المواقف وتبيين المشاهد وعرضها وكأنَّها مشاهد حَيَّة، منتزعة من عالم الأحياء، لا ألوان مُجَرَّدة، ولا خطوط جامدة، بل مشاهد تُقَاس فيها الأبعاد والمسافات بالمشاعر والوجدانات والخواطر والخلجات، فتراه يرسم المواقف وهي تتفاعل في نفوس آدميَّة حَيَّة، أو شخوص من الطبيعة تخلع عليها الحياة، مثال ذلك قول الجاحظ في الخطابة: «قال بَعْضُهم: لا يكون الكلامُ يستحقُ اسم البلاغة حَتَّى يُسَابق معناه لفظه، ولفظه مَعْنَاه، فلا يكون لفظُهُ إلى سَمْعِكَ أسْبَق من معناه إلى قَلْبِك»(٢٦).

ثم يستطرد ويتابع قوله: «قال عمر الشمَّري: كان عمرو بن عبيد لا يكاد يتكلَّم، فإذا تَكَلَّم لَمْ يكد يُطِيل. وكان يقول: لا خير في المتكلّم إذا كانَ كلامه لمن شهده دون نفسه. وإذا طالَ الكلام عرضت للمتكلّم أسباب التكلف، ولا خيْرَ في شيء يأتيكَ به التكلُّف... إنْ استطعتُم أن يكون كلامكم لله مثل التوقيع فافعَلُوا»(٢٧).

لقد استطاع الجاحظ أن يبدع في عرض المشاهد، لإثبات حجَّته بالبلاغة، فها هو ينتقل من قول لآخر ومن مشهد لآخر وهذا ما أشار إليه الباحث حَنّا الفاخوري بقوله: «إنَّ الجاحظ - شأن الأستاذ الحاذق - يُرَاعي أبدًا مُقْتَضَى الحال. فهو خبيرٌ بنفسية الإنسان... ومفتنٌ ماهر، لا ينسى من يضع لهم كتبه، ولا يغفل عن الأحوال المكانيّة والزمانية، فتراه يَتَحدَّث إلى قارئيه بأسلوب طبيعي بعيد عن الصنعة والتمويه، فَتَرَى عبارته تمتدّ تارةً وتنقبض أُخرى، ترسل تارة إرسالاً من غير تمويج ولا تقطيع، وتقطَّع تارة أخرى تقطيعًا موسيقيًا، وتَرَى أُسلوبه ينزع نزعة الحياة الحُرَّة الطليقة التي تروق أبناء العصر، ويميل عن جفاف الأُسلوب العلمي المجرَّد، ويسترسل في الاستطراد والاستشهاد والجدل»(٢٨).

وهكذا يدمج الجاحظ الحسّيّ والمعنويّ للكشف عن المشاهد وتعميق المواقف وإثبات الحجج في شتى الأغراض التي تستدعي العرض الخاطف القصير والحجة المقنعة.

٣ - التقابل والازدواج:

ليس بعجيب كذلك أن تكثر صور التقابل في كتاب «البيان والتبيين»، فهو كتاب يَقُوم على إثبات الحجج بالبراهين المقنعة، والصور المنتزعة من الواقع بجدليَّاته وتناقضاته من أرض وسماء وليل ونهار، وخصب وجدب..... ومُرْتفعات ومنخفضات، استقامة والتواءً، صلابة وليونة، فهو يوازن بين الأُمور بحكمة حتَّى في أثناء الجمع بين المتناقضات. وهذه سمة هامة من سمات رسائله في كتابه

«الحيوان» ورسائله «كرسالة التربيع والتدوير». وهذا ما نلحظه في قوله من خلال وصف الحاسد.

«ومتى رأيتَ حاسداً يُصَوِّب لك رأياً، وإن كُنْتَ مُصيباً. أو يُرْشدك إلى الصواب، وإن كُنْتَ مُخْطئًا. أو نصح لك في غَيْبَته عنك، أو قصرَّ من عَيْبه لك. هو الكلْبُ الكَلِبُ، والنمرُ الجَربُ... إنْ مَلَكَ قَتَلَ وسَبَى، وإن مَلَكَ عَصَى وبَغَى، حياتُكَ مَوْتُهُ وثبوره. وموتُكَ عرسُهُ وسرورُهُ. يصدق عليك كلّ شاهد زور، ويكذب فيك كلّ عدلٍ مرضي، لا يحبّ من الناس إلاّ من يبغضكَ. ولا يبغض من الناس إلاّ من يُحبُّك... أحسن ما تكون عنده حالاً أقل ما يراك عليه مالاً وأكثر ما تكون عيالاً، وأعظم ما تكون ضلالاً»...[٢٩].

هنا لم تكن المقابلة بين لفظة ولفظة، أو بين حالة نفسيَّة وحالة نفسيَّة أخرى فقط، بل كذلك مقابلة بين الموسيقى المصاحبة لكلّ منهما... وهذا من عظمة التعبير وجمال التصوير وروعة التأثير التي تمتاز بها جمله وعباراته القائمة على ديالكتيك التضاد والمفارقة بين الحاسد والمحسود، لإبراز سلبية الحاسد وذمّه بأسلوب ساخر لاذع وتهكمي في آن.

٤ - روعة الانتقال بين الصور بقوة وإيجاز:

من خصائص كتاب «البيان والتبيين» الأسلوب الفذّ والتصوير العجيب، وروعة الانتقال من معنى إلى معنى، أو من حالة إلى حالة، انتقالاً يُحَرِّك النفس، ويزيد من متابعة الخيال لهذه الصور المتتابعة، وهي تنتقل من مخاطبة الإنسان العاقل إلى الجماد الذي لا يفهم ولا يعي، كما أن جملة تنتقل من وصف إلى قَصّ إلى تشريع إلى جدل وإلى ضروب شتّى. كلّ هذا في افتنان عجيب وتَنَوّع أعجب في الموضوعات.

والأعجب من هذا كلّه، أنّه مع كونه أكثر الكلام افْتنَانًا وتنويعًا في الموضوعات، هو أكثره افتنانًا وتلوينًا في الأسلوب، في الموضوع الواحد: فهو لا يستمر طويلاً على نمط واحد من التعبير، كما أنّه لا يستمرّ طويلاً على هَدَف واحد من المعاني، إذ ينتقل في المعنى الواحد بين إنشاء وإخبار وإظهار وإضمار، وجمل اسميّة وفعلية، ومُضيّ وحضور واستقبال، وتكلُّم وغيبة وخطاب إلى غير ذلك من طرق الأداء، على نحو متميّز جعله يُعَدّ من أهم جهابذة البلاغة والفصاحة في تراثنا البلاغي والنقدي معًا، ومن أراد التأكد ما عليه إلاّ قراءة الجزء الأول كاملاً لمافيه من خصائص وروعة في الانتقال بين الصور.

٥ - وحدة الصورة ودقتها:

وهذه قيمة أُخرى من القيم الجماليّة التي يمتاز بها أُسلوب الجاحظ في صوره الأدبيَّة، وهي أنّها مُوَجَّهة إلى العامّة وإلى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الخاصّة على حدّ سواء، وفي وقت معًا. وهاتان غايتان مُتباعدتان عند الناس، فلو أنّكَ خاطَبْتَ الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء؛ لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب. ولو أنّكَ خاطبت العامّة باللمحة والإشارة التي تخاطب بها الأذكياء، لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم. فلاغنى لك - إن أردتَ أن تعطي كلتا الطائفتين حقَّها من بيانك - أن تخاطب كلّ واحدة منهما بغير ما تخاطب به الأُخرى، كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال، فأمّا أن جملة واحدة تُلقَى إلى العلماء والجهلاء، وإلى الأذكياء والأغبياء، وإلى السوقة والملوك - فيراها كلّ منهم مُقدَّرة على مقياس عقله وعلى وفق حاجته - فذلك ما لا تجده على أتمّه إلاّ في القرآن الكريم، البيان المقدّس، و«البيان والتبيين» للجاحظ، والأمثلة على ذلك كثيرة، نختار منها قوله: **«إنّ البلاغة اسمٌ جامع لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جَوَابًا، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون شعرًا، ومنها ما يكون سجعًا وخطبًا، ومنها ما يكون رسائل. فعامّة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها، والإشارة إلى المعنى، والإيجاز»**(٣).

❖ هذه أهم القيم الجمالية التي يمتاز بها كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ، من بيان قوي واضح فتجد في ألفاظه على الرغم من استطراده أحيانًا، الملاسة والإحكام والخلو من كل غريب عن الغرض، وكأنّه فصٌ من الماس يعطيك كل ضلع منه شعاعًا، فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطيف كلها، فلا تدري ماذا تأخذ عينك وماذا تدع. وهكذا تجده كتابًا بيانيًا مفتوحًا على مرّ العصور والأجيال.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحواشي

(١) العسكري، أبو هلال - الصناعتين، مطبعة الأستانة، ص٥.

(٢) القيرواني، ابن رشيق، ١٣٢٥هـ - العمدة، مطبعة السعادة، القاهرة، ١/ص ١٧١.

(٣) البوشيخي، الشاهد - مصطلحات نقديّة وبلاغيّة في كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ، ص٢١.

(٤) طبانة، بدوي، ١٩٥٦ - البيان العربيّ، مطبعة الرسالة، القاهرة، ص٣٦.

(٥) المرجع نفسه، ص٣٧.

(٦)حجاب، محمد نبيه، ١٩٨٦ - بلاغة الكتّاب في العصر العباسي، مكتبة الطالب الجامعي، ط٢، ١٤٨.

(٧) الفاخوري، حنا - تاريخ الأدب العربي، المكتبة البوليسية، بيروت، لبنان، ط٨ ص٥٧٣ - ٥٧٤.

(٨) الجاحظ، ١٩٨٥ - البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط٥، ج٢/ص٧-٨.

(٩) المصدر نفسه، ج١/ ص٢٧٢.

(١٠) بلاغة الكتّاب في العصر العباسي، ص٢٧٧.

(١١) الجاحظ - البيان والتبيين، ١/ص٧٧. المقصود بالحشوة والطغام: الرذالة.

(١٢) الجاحظ، ١٩٢٣ - رسائل الجاحظ، تح: السندوبي، الرحمانية، ص١٠ - ١١.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٣٣٥ - ٣٣٧.

(١٤) المسعودي، ١٣٤٦هـ مروج الذهب، مطبعة البهية، ج٧/ص٢٤٤.

(١٥) السندوبي، ١٣٩١هـ - أدب الجاحظ، الرحمانية، ص٧٥.

(١٦) علي، محمد كرد - رسائل البلغاء، لجنة التأليف، ص٨٣.

(١٧) الفاخوري، حنا - تاريخ الأدب العربي، ص٥٧١.

(١٨) ضيف، شوقي، ١٩٤٦ - الفنّ ومذاهبه في النثر العربي، القاهرة، دار المعارف، ص٥٨ - ٦١.

(١٩) الجاحظ، - الحيوان، تح: عبد السلام هارون، دار إحياء الكتب العربية، ج١/ ص٣٨ وما بعدها.

(٢٠) الفاخوري، حنا - تاريخ الأدب العربي، ص٥٨٣.

(٢١) الجاحظ - الحيوان، ١/ص٣٩ وما بعدها.

(٢٢) الثعالبي، ١٩٤٣ - يتيمة الدهر، الصاوي، ج٣/ص١٥٥.

(٢٣) الجاحظ - البيان والتبيين، ج١/ص٧٦.

(٢٤) المصدر نفسه، ج١/ ص١٠٦.

(٢٥) المصدر نفسه، ج١/ص٨٣ - ٨٤.

(٢٦) المصدر نفسه، ج١/ص١١٥.

(٢٧) المصدر نفسه ج١/ص١١٤ - ١١٥.

(٢٨) الفاخوري، حنا - تاريخ الأدب العربي، ص٥٨٢.

(٢٩) الجاحظ - البيان والتبيين، ١/ص١٩٠. وينظر رسائل الجاحظ، ٣٣٥ - ٣٣٧.

(٣٠) المصدر نفسه ١/ص١١٦.

❖ ❖ ❖

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com